

«ستراتفورد»: تسييس الحج.. المصراع طويل الأمد بين السعودية وإيران

ترجمة وتحرير شادي خليفة - الخليج الجديد

يصل موسم الحج السنوي إلى ذروته في السعودية هذا الأسبوع بين 9 و14 سبتمبر/أيلول. ويحتج هذا العام قرابة 1.5 مليون حاج من 180 دولة. ويأتي الحجاج إلى مكة لزيارة الكعبة ولتأدية مناسك الشعيرة التي تعتبر للغالبية رحلة واحدة في العمر. وأن الحج هو فرض على من قدر عليه، فإنه يكون بالنسبة لبعض الحجاج شيئاً ادّخرّوا له وانتظروه سنوات. ورغم كونه تصويراً نهائياً يعبر عن وحدة الأمة الإسلامية، فربما يكون الحج في بعض الأحيان سبباً للفرق. فعندما تمارس المملكة العربية السعودية السنوية سلطتها على أراضيها وتحكم في تواجد الحجاج على الأماكن المقدسة، فإنها تواجه اتهامات بتسييس الحج من قبل منافسها اللدود في المنطقة وزعيم الشيعة، إيران.

وهذا هو الوضع القائم بين السلطاتين الدينيتين الأقوى، السعودية وإيران، واللتان توجهان لبعضهما البعض لكمات كلامية حول موسم الحج، وتشكّان في شرعية بعضهما البعض روحياً وسياسياً. وتصاعد التوتر بين البلدين منذ حادثة التدافع بين الحجاج العام الماضي، والذي يخشى من تكرره هذا العام. ولقي قرابة 2,300 حاج مصرعهم في سبتمبر/أيلول الماضي، وحققت السعودية في الحادث لكن النتائج لم توضّح بعد. وتصاف تلك التوترات إلى عدد كبير من الاحتكاكات التي تغذي العلاقة المتدهورة بين البلدين، واتهم المرشد الأعلى لإيران، «آية الله علي خامنئي»، نهاية الأسبوع قبل الماضي، السعودية بسوء إدارة الحج وارتكاب جريمة قتل خلال موسم العام الماضي. وفي الأسبوع الماضي، ردّ مفتي المملكة العربية السعودية باتهام الإيرانيين بأنهم غير المسلمين «أبناء الم Gors»، في إشارة للتقاليد الزرادشتية الشائعة في إيران.

لقد اتهمت إيران السعودية لعقود بسوء إدارة الحج. وارتفعت حرارة الأمر حينما انحرف موسم الحج عن قدسيته، وقتل رجال الأمن السعوديون مئات الحجاج الإيرانيين المحتجين عام 1987. وذكرت بيانات إيران الأسبوع الفائت تلك الحادثة كخلفية تاريخية، لكنها ركزت على حادثة العام الماضي حين مات 474 حاجاً إيرانياً في حادثة التدافع، وهو عدد أكبر من قتلى أي دولة أخرى. وكان هذا التدافع واحداً من سلسلة من الكوارث خلال عقود تدل على أن السعودية قد واجهت إخفاقات في إدارتها للحج، حيث الصعوبة

اللوجستية الناتجة عن ملايين البشر الذين يتحركون في مساحات ضيقة. وستتعقد الأمور أكثر بمحاولة السعودية «حشر» عدد أكبر من الناس في تلك الأماكن الضيقة.

وتعتبر إدارة الحج واحدة من أعمدة شرعية آل سعود. ومن الغريب اتهام السعودية بتأسيس الحج الآن، بينما كان الحج منذ فترة طويلة جزءاً لا يتجزأ من سياسة المملكة مع جيرانها. واستفادت السعودية في نفوذها الإقليمي والعالمي بين الدول المسلمة بإدارتها للحج، وعندما دافعت مصر وباكستان ودول مجلس التعاون الخليجي عن السعودية الأسبوع الفائت ضد تصريحات المرشد الأعلى لإيران، فإنّ ذلك قد أظهر الجانب الذي اتخذه دائمًا في الانقسام الدائر في الخليج. وقد شاركت تركيا هي الأخرى في محاولة حل هذا الخلاف هذا العام لكنها لم تنجح. فلم يكن لدى طهران ولا الرياض الرغبة في التراجع، بالنظر إلى حدة نزاعهما المتصاعد.

وبالنسبة للممارسات الإدارية، تتشاور السعودية مع عدد من المؤسسات والدول الخارجية حول إجراءات السلامة المتعلقة بالحج (مثل مركز التحكم الجديد، وأسوار السلامة)، لكنها لا تسمح أبدًا للدول الأخرى بتقديم المشورة في الإدارة الأساسية للحج، أو أن تجعل مساحة الحج دولية، مثلما تم الاقتراح سابقاً. وحتى دول مجلس التعاون الخليجي لا تجرؤ على التعدي على دور المملكة المعقد في إدارة الحج. وكلما علا صراخ إيران حول «سوء الإدارة»، كلما غاصت الرياض أكثر فيما تعتبره مصيرًا وحفيًّا إلهيًّا. ويظهر الحج هذا العام في دائرة الضوء كمصدر للإيرادات غير النفطية لينسجم مع خطة الإصلاح السعودية الطموحة (رؤية 2030). وتحاول السعودية زيادة عدد الحجاج، وهو ما قد يؤدي إلى كوارث أكثر خلال السنوات القادمة. وأعلنت السعودية في وقت مبكر هذا العام نيتها رفع أعداد الحجاج بنسبة 13% سنويًّا حتى 2020، ليصل مجموع الحجاج إلى 2.5 مليون حاج. كما تبني رفع أعداد المعتمرين خلال العام بنسبة 30 سنويًّا، ليصل من 6 مليون معتمر حاليًّا إلى 15 مليون معتمر في عام 2020.

وتعمل السعودية على قدم وساق في بناء وإنشاء مشاريع لتوسيعة مدنها المقدسة لاستيعاب تلك الزيادة الكبيرة في عدد الحجاج، ولكن مع حادثة الرافعة العام الماضي، فإن هذه التوسعات ربما تحمل مخاطرة أيضًا. في بداية سيطرة آل سعود على إدارة الحج بعد سقوط الدولة العثمانية وانهيارها بعد الحرب العالمية الأولى، كانت سعة الحج تبلغ 50 ألفًا فقط، ومنذ ذلك الحين قام آل سعود بتوسيعات بسعة مليون حاج، مع أهداف مستقبلية للزيادة المستمرة.

وتعتبر الوصاية على الحرمين الشريفين ركيزة يستند إليها آل سعود في ظل الاهتزازات التي ضربت ركاً نزهم الأخرى، وأهمها تقلص عائدات النفط وتراجع تأثير الوهابية. وقد اهتزت ركيزة عائدات النفط بفعل انخفاض أسعاره عالميًّا، بينما ضربت الركيزة الأخرى بفعل صعود الجماعات الإسلامية المتشددة عبر المنطقة. ولذا تحاول السعودية الاستفادة قدر الإمكان من استضافتها موسم الحج، على الرغم من التداعيات السياسية المحتملة. وعلى الرغم من قداسة الحج وأهميته، إلا أنه بسبب ما يقدمه للسعودية والبلدان الإسلامية الأخرى، وبسبب تسييسه، فإنه يقدم دوماً طريقًا لإيران للنقد والتدخل.

